النصيحة لكتاب الله

تأليف

الدكتور/ **حافظ بن محمد الحكمي**

الاستاذ المساعد بكلية الحديث بالجامعة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[١] ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[٣].

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

---

(١) آل عمران آية (١٠٢).

(٢) النساء آية (١).

(٣) الأحزاب آية (٧).

ثم أما بعد:

فإن الله تبارك وتعالى قد اختار أمة محمد ﷺ لتكون هي الأمة الوسط والشهيدة على سائر الأمم كما قال سبحانه: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس**﴾(١).

وتلك المنزلة الرفيعة لا يمكن أن تبلغها الأمة إلا بالتمسك بكتاب ربها والإهتداء بهديه لأنه يحمل المؤهلات لبلوغ تلك المنزلة، قال تعالى: ﴿**فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾(٢). قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل به ألَّا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ولذلك دعاها نبيُّها صلوات الله وسلامه عليه للنصيحة لكتاب ربها فقال ﷺ (الدين النصيحة) قلنا: لمن يارسول الله؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)(٣).

ولقد حظيت الأمة الإسلامية بتلك المكانة العالية التي اختارها لها ربها جل وعلا يوم أن حققت تلك النصيحة التي دعاها إليها رسولها ﷺ وها هي اليوم قد زُحزحت عن تلك المكانة وأصبحت في مؤخرة الركب.

---

(١) البقرة آية (١٤٣).

(٢) طه آية (١٢٣ ـ ١٢٤).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ٩٥.

بل أصبحت مستهدفة من أعدائها على إختلاف أهدافهم وتباين نحلهم:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى استامها كل مفلس

إن الذي لديه بقية من إيمان ليذوب ألماً وحزناً لما يسمع من مذابح للمسلمين وانتهاك لأعراضهم صباحاً ومساءاً في مختلف بقاع العالم وبات حالهم ينسي كل مصيبة ألمت بالإسلام وأهله من قبل:

أحل الكفر بالإسلام ضيما يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليباً ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل لطفّل في عوارضه المشيب(١)

فهل من سبب لما حلّ بالمسلمين من ضعف وخور أمام أعدائهم غير تفريطهم في النصيحة لكتاب ربهم؟

لقد تطرق الشيخ الأمين ـ رحمه الله تعالى ـ في معرض حديثه في أضواء البيان عن هداية القرآن إلى أهم المشكلات التي عانى منها المسلمون اليوم ـ وكانت هذه من جملتها ـ ثم بيّن أن

(١) انظر مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: ١/٣٢٩ ولم أقف على قائل الأبيات.

حلولها في كتاب الله تعالى وسوف أسوق كلامه بطوله لأهميته.
قال رحمه الله تعالى: «ومن هدي القرآن للتي هي أقوم ـ هدايته إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها، ونحن دائماً في المناسبات نبين هدي القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات هي من أعظم ما يعانيه العالم في جميع المعمورة ممن ينتمي إلى الإسلام ـ تنبيهاً على غيرها:

المشكلة الأولي: هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العَدَ والعُدَد عن مقاومة الكفار وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها فبين أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلى الله تعالى وقوة الإيمان به والتوكل عليه لأن الله قوي عزيز قاهر بكل شيء فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا.

فمن الأدلة المبينة لذلك: أن الكفار لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة الأحزاب المذكورة في قوله تعالى: ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**﴾.

كان علاج ذلك هو ما ذكرنا فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة أثره على المسلمين مع أن جميع أهل الأرض في

ذلك الوقت قاطعوهم سياسة واقتصاداً. فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج الذي قابلوا به هذا الأمر العظيم وحلوا به هذه المشكلة العظمى هو ما بينه جل وعلا في سورة الأحزاب بقوله:

﴿ولما رءا المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾.

فهذا الإيمان الكامل وهذا التسليم العظيم لله جل وعلا ثقة به وتوكلاً عليه هو سبب حل هذه المشكلة العظمى.

وقد صرح الله جل وعلا بنتيجة هذا العلاج بقوله تعالى: **﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾.**

المشكلة الثانية: هي تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء مع أن المسلمين على الحق والكفار على الباطل.

وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النبي ﷺ فأفتى الله جل وعلا فيها وبيّن السبب في ذلك بفتوى سماوية تُتلى في كتابه جل وعلا. وذلك أنه لمَّا وقع ما وقع بالمسلمين في أُحد فقتل عمُّ النبي ﷺ وابن عمته ومُثّل بهما وقُتِل غيرهما من المهاجرين وقتل

سبعون رجلاً من الأنصار وجُرح ﷺ وشقت شفته وكسرت رباعيته وشج ﷺ استشكل المسلمون ذلك وقالوا: كيف يدال مِنّا المشركون؟ ونحن على الحق وهم على الباطل؟ فأنزل الله قوله تعالى:

أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ فيه إجمال بينه تعالى بقوله ﴿**ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم**﴾.

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين وتنازعهم في الأمر وعصيانهم أمره ﷺ وإرادة بعضهم الدنيا، مُقدّماً لها على أمر الرسول ﷺ ـ ومن عرف أصل الداء عرف الدواء كما لا يخفى.

المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية لاستلزامه الفشل وذهاب القوة والدولة كما قال تعالى: ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾.

فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء وإن جامل بعضهم بعضاً فإنه لا يخفى

على أحد أنها مجاملة وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك، وقد بيّن الله تعالى في سورة (الحشر) سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى إنما هو ضعف العقل قال تعالى: ﴿**تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى**﴾ ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿**ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**﴾ ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق وتمييز الحق من الباطل والنافع من الضار والحسن من القبيح لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتاً ويضيء الطريق للمتمسك به فيريه الحق حقاً والباطل باطلاً والنافع نافعاً والضار ضاراً قال تعالى: ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾ وقال تعالي: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ ومن أخرجه من الظلمات إلى النور أبصر الحق لأن النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقاً والباطل باطلاً وقال تعالى: ﴿**أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمّن يمشي سوياً على صراط مستقيم**﴾. وقال تعالى: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ولا الأحياء ولا الأموات**﴾ وقال تعالى: ﴿**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا**﴾ الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإيمان يكسب الإنسان حياة بدلاً من

الموت الذي كان فيه ونوراً بدلاً من الظلمات التي كان فيها. أهـ[١].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن السبب في تحول حال الأمة الإسلامية إلى ما نرى ونسمع إنما هو هجرها لكتاب ربها وتفريطها في النصيحة له كما أشار رحمه الله إلى أنها تُعاني اليوم من مشكلات عظام ولا خلاص لها إلا بالرجوع لكتاب الله وتحقيق النصيحة له كما حققها السلف رضوان الله عليهم. فوجب على المنتسبين للعلم والدعوة إلى الله تعالى أن يولوا هذا الجانب جلّ إهتمامهم وأن يعودوا بالأمة إلى النبع الذي استقى منه سلفهم ولا أعني بهذا أنها لم تبذل جهوداً بهذا الصدد كلا! فهناك جهود مشكورة ولكنها ـ في نظري ـ أقل من المطلوب وقد رأيت من الواجب المشاركة في هذا المجال العظيم بما فتح الله ويسر على قلة في البضاعة وفتور في العزيمة ولكن إن لم يكن وابل فطل وعسى الله أن يجعله فاتحة لبحوث أكثر توسعاً من أهل العلم والفضل.

وكان أصل هذا البحث محاضرة ألقيتها في قاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية وفي جهات أخرى وقد اقترح عليّ بعض السامعين نشرها ثم سألني البعض عن كتاب يجمع مادة المحاضرة فلم أجد كتاباً استوفى ذلك لأنني جمعت مادة

---

(١) أضواء البيان: ٣/٤٥٢ ـ ٤٥٧.

المحاضرة من مصادر مختلفة فعزمت بعد ذلك على نشرها في صورة بحث علمي فوسعت بعض المباحث وأضفت مباحث أخرى يقتضيها المقام حتى صار بهذه الصورة وقد حاولت في هذا البحث أن أبرز معنى النصيحة وأشفعه بنماذج عملية من حياة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ليكون أبلغ في إيضاح المعنى وأدعى للنفوس إلى العمل.

وأسأل المولى تبارك وتعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به ويعظم الأجر والمثوبة ورجائي ممن رأى ما يستحق التنبيه ولا شك في وجوده ألّا يتوانى في بذل النصيحة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم.

وكان الفراغ من تبييضه في صبيحة يوم السبت

٢٩/٧/١٤١٥هـ



الفصـــل الأول

بيان فضل القرآن على غيره واشتماله على الهداية لخيري الدنيا والآخـــرة





المبحث الأول
فضل القرآن على غيره

يكفي القرآن الكريم فضلاً وشرفاً أنه كلام الله العليم الحكيم تبارك وتعالى منه بدأ وإليه يعود، قال سبحانه: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه**﴾(١).

وقال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾(٢).

وقد فضّله تبارك وتعالى على سائر الكتب المنزلة على أنبيائه حيث جعله مهيمناً عليها قال جل وعلا: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لِمَا بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه**﴾(٣).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المهيمن: الأمين، قال: والقرآن أمين على كل كتاب قبله.

وقال ابن جريج ـ رحمه الله ـ: «القرآن أمين على الكتب المتقدمة فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو باطل».

---

(١) التوبة آية (٦).

(٢) الشورى آية (٥٢).

(٣) المائدة آية (٤٨).

وعن ابن عباس أيضاً: مهيمناً : شهيداً. وعنه أيضاً: حاكماً على ما قبله.

وقد حكى ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ الأقوال السابقة ثم قال: «وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال: ﴿**إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾(١).

ومن أعظم فضائله أنه المعجزة الكبرى التي أوتيها النبي ﷺ وقد تحدّى المولى تبارك وتعالى العرب بل الأنس والجن أن يأتوا بمثله فقال سبحانه: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾(١)

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقال تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾(٣).

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فقال سبحانه: ﴿**أم يقولون**

(١) تفسير ابن كثير : ٣/١١٩.
(٢) الإسراء آية (٨٨).
(٣) هود آية (١٣).

افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1].

وأخبر سبحانه أنهم عاجزون عن الإتيان بشيء من ذلك وأنهم لن يستطيعوا ذلك في المستقبل فقال سبحانه: ﴿**قل إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾[2].

ولقد كان القرآن الكريم أعظم معجزة أوتيها نبي من الأنبياء وأبلغها أثراً ذلك أنها معجزة خالدة لم تنته بوفاة الرسول ﷺ.

فقد روى ـ البخاري ـ في فضائل القرآن من صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ (ما من الأنبياء نبي إلا أعـطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً إلى يوم القيامة)[3].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ تعليقاً على الحديث: «في هذا الحـديث فضيلة عظيمـة للقـرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء وعلى كل كتاب أنزله الله وذلك أن معنى

---

(١) يونس آية (٣٨).

(٢) البقرة آية (٢٣).

(٣) صحيح البخاري مع الفتح، فضائل القرآن: ٤٩٨١.

الحديث «ما من الأنبياء إلا أعطي - أي من المعجزات - ما آمن عليه البشر» أي كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من اتبعه من البشر ثم لما مات الأنبياء لم تبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهدوه في زمانه وأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحياً منه إليه منقولاً بالتواتر ففي كل حين هو كما أنزل فلهذا قال: (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً) وكذلك وقع فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته ولهذا قال تعالى: ﴿**تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾[1].

(١) فضائل القرآن: ١٢.

المبحث الثاني
اشتمال القرآن على الهداية لخيري الدنيا والآخرة

النصوص الواردة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ بشأن القرآن واشتماله على الهداية لخيري الدنيا والآخرة كثيرة يطول بنا المقام إن حاولنا استقصاءها لكن بما أن الغرض هو الذكرى فسوف نقتصر على ما يحقق الغرض إن شاء الله تعالى.

يقول الله جل وعلا مثنياً على كتابه الكريم وموجهاً عباده إلى العناية به ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾[1].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (موعظة) أي: زاجر عن الفواحش. (وشفاء لما في الصدور) أي من الشُبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس»[2].

وقال سبحانه: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾[4].

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في معنى الآية: قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شى[3]

(١) يونس آية (٥٧).
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/٢١.
(٣) النحل آية (٨٩).
(٤) تفسير ابن كثير: ٤/٥١٣.

وقال مجاهد ـ رحمه الله تعالى : كل حلال وحرام[١].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ بعد حكاية القولين السابقين : «قول ابن مسعود أعم وأشمل فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق وعلم ما سيأتي وحكم كل حلال وحرام وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[١].

وقال تعالى : ﴿**فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى**﴾[٢].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألاَّ يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين**﴾[٤].

قال ابن سعدي ـ رحمه الله تعالى ـ : (الهدى) ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبهة وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال سبحانه (هدى) وحذف المعمول فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية ومبيّن للحق من الباطل والصحيح من الضعيف ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥١٣/٤.

(٢) طه آية (١٢٣).

(٣) تفسير القرطبي : ٢٥٨/١١.

(٤) البقرة آية (٢).

(٥) تفسير الكريم المنان : ١٧/١.

وقال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[(١)].

قال الشيخ الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية وأجمعها لجميع العلوم وآخرها عهداً برب العالمين جل وعلا (يهدي للتي هي أقوم) أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب.

وهذه الآية أجمل فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير طريق وأعدلها وأصوبها فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة ولكن إن شاء الله سنذكر جملاً أخرى في جهات كثيرة من هدي القرآن للتي هي أقوم بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار وطعنوا بسببها في دين الإسلام لقصور إدراكهم عن حكمه البالغة..».

ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هداية القرآن للتي هي أقوم في الأمور التالية: التوحيد، وجعل الطلاق بيد الرجل، تعدد الزوجات، تفضيل الذكر على الأنثى، ملك الرقيق، قطع يد السارق، رجم الزاني المحصن، أن التقدم لا ينافي التمسك بالدين، أن مَنْ اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به النبي ﷺ كفر كفراً بواحاً، أن الروابط التي يجب أن تربط أفراد المجتمع وأن ينادي بالأرتباط بها إنما هي دين الإسلام.

---

(١) الإسراء آية (٩).

ثم ذكر أن المصالح التي عليها مدار الشرائع ثلاث :ـ

١ ـ درء المفاسد المعروفة عند أهل الأصول بالضروريات.

٢ ـ جلب المصالح المعروفة عند الأصوليين بالحاجيات.

٣ ـ الجري على مكارم الأخلاق المعروفة عند الأصوليين بالتحسينات والتتميمات.

ثم قال رحمه الله : [وكل هذه المصالح هدى القرآن فيها للتي هي أقوم].

ثم قال : ومن هدي القرآن للتي هي أقوم هدايته إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها..

ثم ذكر أن أعظم ما يُعاني منه العالم الإسلامي ثلاث مشكلات :

الأولى : ضعف المسلمين في أقطار الدنيا عن مقاومة الكفار.

الثانية : تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل وغيره.

الثالثة : إختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية لاستلزامه الفشل وذهاب الريح والدولة كما قال تعالى :

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ ثم بيّن رحمه الله تعالى كيف هدى القرآن للتي هي أقوم في تلك الأمور كلها بياناً شافياً[1]. وقد جاءت كذلك الإشارة إلى هداية القرآن الحث على التمسك به في حديث رسول الله ﷺ.

---

(١) أضواء البيان: ٣/٤٠٩ ـ ٤٥٧، وانظر صص ٦ ـ ١٠ من هذا البحث.

ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: [قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بماء يدعى خُمّاً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال (أما بعد: ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم الثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) فحث على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال (وأهل بيتي . . .) [1]

وفي رواية (كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان عمل الهدى ومن أخطأه ضل).

وفي حديث جابر الطويل في صفة حجة النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم عرفة (وإني قد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله. . . .) [1]

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: [ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جَنَبَتَيْ الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة **وعند رأس الصراط داع يقول استقيموا على الصراط ولا تعوجوا** وفوق ذلك داع يدعو كلماهَمَّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لاتفتحه فإنك إن تفتحه تلجه «ثم فسره فأخبر أن الصراط هو

---

(١) صحيح مسلم، فضائل الصحابة: ٢٤٠٨.

(٢) سنن أبي داود: ٢/٤٦٢، وصححه الألباني، حجة النبي ﷺ: ٧٢.

الإسلام وأن الأبواب المفتحة محارم الله وأن الستور المرخاة حدود الله وأن الداعي على رأس الصراط هو القرآن وأن الداعي من فوقه هو واعظ الله في قلب كل مؤمن»[(١)]

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:

كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (إن أحمق الحمق وأضل الضلالة قوم رغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمة غير أمتهم ثم أنزل الله (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)[(٢)]

إن في تلك النصوص السابقة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لغنية لإبراز عظمة القرآن وهدايته للتي هي أقوم على أن هداية القرآن لم يكن إدراكها مقصوراً على الجانب النظري فحسب بل إنها قد تجسدّت في واقع محسوس مشهود للعيان.

لَمسَه القريب والبعيد إنها قد تجلَّت في أسره عقول العرب الفصحاء وتأثيره العجيب في القلوب كما تجلَّت في انتشاله تلك الأمة الأمية من بين ركام الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء ورفعها إلى أوج الكمال البشري وتحويلها من أمة مغمورة

(١) المسند: ٤/١٨٢، ١٨٣، والمستدرك: ١/٧٣. وقال صحيح على شرط مسلم وسكت عليه الذهبي.

(٢) الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه، وأخرجه ابن جرير عن يحيى بن جعدة: ١١/٧.

مستضعفة إلى أمة مهيبة الجانب تحكم دولة لا تكاد تغيب عنها الشمس حتى قال الخليفة العباسي هارون الرشيد قولته المشهورة مخاطباً السحابة: (أمطري حيث شئت فسوف يأتي خراجك).

إن هذا الحدث العظيم الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً قد أذهل أعداء القرآن فأعلنوا شهادتهم بعظمته راغمين تَمثّلَتْ تلك الشهادة في تحذيرهم لأقوامهم منه والسعي جهدهم لصد الناس عنه. قال تعالى عن كفار قريش: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[١].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «أي تواصوا فيما بينهم ألاَّ يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره. وقوله (والغوا فيه) أي بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن تفعله قريش»[٢]. وقال سبحانه ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم**﴾[٣]

وقد فسر ابن مسعود «لهو الحديث» هنا بالغناء فقد روى ابن جرير بسنده عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية ﴿**ومن الناس من يشتري لهو**

---

(١) فصلت آية (٢٦).
(٢) تفسير ابن كثير: ١٦٣/٧.
(٣) لقمان آية (٦).

الحديث. . . ﴾ فقال عبدالله: الغناء والذي لا إله إلا هو (يرددها ثلاثاً)[(١)].

وقد ورد في سبب نزولها أن النضر بن الحارث كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قيْنةٍ فيقول: «أطعميه واسقيه وغنيه»[(٢)].

أما أعداء الإسلام الصليبيون فكانت عباراتهم أصرح وظهور الشهادة من خلالها أوضح وهذا دليل على شدة وطأته عليهم وعجزهم أمام هدايته.

ويقول جلادستون وزير بريطانيا الأول: «مادام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولن تكون هي نفسها في أمان».

ويقول المبشر بلكراف: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»[(٣)].

وعلى ذكرى مرور مائة عام على إحتلال فرنسا للجزائر وقف الحاكم الفرنسي في الجزائر يقول: يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر

---

(١) تفسير ابن جرير: ١١/٦١.

(٢) تفسير القرطبي: ١٤/٥٢.

(٣) أساليب الغزو الفكري ٣٠.

عليهم وبعـد ذلـك بسنوات قامت فرنسا من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر بتجربة عملية، فتم انقاء عشر فتيات مسلمــات جزائـريات أدخلتهن في المـدارس الفـرنسية ولقنتهن الثقـافة الفرنسية فأصبحن كالفرنسيات تماماً وبعد أحد عشـر عاماً من الجهود هيأت لهن حفلة تخرج رائعة دعي إليها الـوزراء والمفكـرون والصحـافيون ولمـا بدأت الحفلة فوجىء الجميع بالفتيات يدخلن بلبـاسهن الإسـلامي الجزائري فثارت ثائـرة الصحف الفرنسية وتساءلت ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عاماً؟ فأجاب لاكوست وزير المستعمرات الفرنسي: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا»[1].

رأى الأعادي يوم الروع عجزهم ... فما الثعالب للأساد أقـران

فقال قائلهم لن تفلحوا أبدا ... مـا دام للقـوم تـاريخ وقـرآن

قد أدركوا سر ذاك الحزم ويلهم ... والجد مهر المنى إن خيض ميدان

(١) معركة الحجاب والسفور: ٢٨٩.




الفصل الثاني

الترغيب في قراءة القرآن والعمل به والترهيب من هجره والاعراض عنه




إنَّ للترغيب والترهيب أثرهما العظيم في تقويم النفس البشرية وتسليس قيادتها.

ولِمَا للنصيحة لكتاب الله تعالى من الأهمية البالغة جاءت النصوص - إلى جانب بيان فضل القرآن واشتماله على الهداية - بالترغيب في النصيحة له، والوعد على ذلك بجزيل الثواب والترهيب من الإعراض عنه وهجره والوعيد على ذلك بأليم العقاب.

المبحث الأول
الترغيب في قراءة القرآن والعمل به

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾[١].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل، وكذا في الإنفاق[٢].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: يخبر عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة[٣].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجه طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرٌّ، ومثل

(١) فاطر ٢٩.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/٣٤٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٦/٥٣١.

الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مُرٌّ ولا ريح لها)[١].

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج النبي ﷺ ونحن في الصفة فقال: (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم؟) فقلنا: يا رسول الله! نُحِبُّ ذلك: قال: (أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عزَّ وجلَّ خيرٌ له من ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأربعٌ خيرٌ له من أربعٍ ومن أعدادهن من الإبل)[٢].

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: (ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلَّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)[٣].

وفي سنن الترمذي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنةُ

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، فضائل القرآن: ٥٠٢، صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٧٩٧.

(٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٨٠٣.

(٣) سنن أبي داود: ١٤٥٥، وصححه الألباني، صحيح الجامع: ٥٣٨٥.

بعشر أمثالها لا أقول (آلم) حرف «ألف» حرفٌ و«لام» حرفٌ و«ميم» حرفٌ)[(١)]

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويُتَعْتع فيه وهو عليه شاقٌ له أجران)[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرأوا القرآن فإنّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)[(٣)].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما)[(٤)].

وفي صحيح البخاري عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: (خيركم من تعلّم القرآن وعلمه)[(٥)]

---

(١) سنن الترمذي: ٢٩١٠، وصححه الألباني، صحيح الجامع: ٢٦٧٣، ٦٣٤٥.

(٢) صحيح البخاري، التفسير: ٤٩٣٧، صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٧٩٨ واللفظ له.

(٣) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٨٠٤.

(٤) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٨٠٥.

(٥) صحيح البخاري ، فضائل القرآن: ٥٠٢٧.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تعليقه على هذا الحديث: «وهذه صفات المؤمنين المتبعين للرسل وهم الكُمَّل في أنفسهم المُكَمّلين لغيرهم، وذلك جمعٌ بين النَّفْعِ القاصرِ والمعدي، وهذا بخلاف صفة الكُفَّار الجبارين الذين لاينفعون ولا يتركون أحداً ممن أمكنهم أن ينتفع كما قال تعالى: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب**﴾ وكما قال تعالى: ﴿**وهم ينهون عنه وينأون عنه**﴾ في أصح قولي المفسرين في هذا هو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه أيضاً، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالي: ﴿**فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها**﴾ فهذا شأن شرار الكفار كما أن شأن الأخيار الأبرار أن يتكمَّل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره كما قال عليه الصلاة والسلام: (خيركم من تعلّم القرآن وعلمه) وكما قال تعالى: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾ فجمع بين الدعوة إلى الله تعالى سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة إلى الله تعالى من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحاً وقال قولاً صالحاً أيضاً، فلا أحد أحسنُ حالاً من هذا، وقد كان أبو عبد الرحمن عبدالله بن حبيب السلمي الكوفي أحد أئمة الإسلام ومشايخهم ممن رغب في هذا المقام فقعد يُعَلِّم الناس من إمارة عثمان رضي الله عنه إلى أيام الحجاج. قالوا: وكان مقدار ذلك

الذي مكث يُعلِم فيه القرآن سبعين سنة، ـ رحمه الله ـ وأثابه وآتاه ما طلبه ورامه آمين» أهـ[١].

وقال إسماعيل بن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لايُوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً من الخلق أعطي أفضل منه فقد حقر ما عظم الله، وعظم ما حقر الله»[٢].

---

(١) فضائل القرآن: ١٢٦.

(٢) المؤمل في الرد إلى الأمر الأول، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية: ٢٢/٢.

المبحث الثاني
الترهيب من هجر القرآن والاعراض عنه

قد وردت عدة آيات في بيان وعيد المعرض عن القرآن وغير المنتفع به وبيان ما يترتب على ذلك من عواقب سيئة:

قال تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن ذُكِّرَ بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه**﴾ وقد علق الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ على هذه الآية ثم أورد الآيات المتعلقة بهذا المعنى فقال رحمه الله: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لا أحد أظلم أي أكثر ظلماً لنفسه ممن ذُكر أي وُعِظَ بآيات ربه وهي هذا القرآن العظيم (فأعرض عنها) أي ولّىٰ وصد عنها.. وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم قد زاد عليه في مواضع أُخر بيان أشياء من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة، فمن نتائجه السيئة ما ذكره هنا من أنَّ صاحِبَهُ من أعظم النَّاس ظُلماً، ومن نتائجه السيئة جعل الأكِنَّةِ على القلوب حتى لا تفقه الحق وعدم الإهتداء أبداً كما قال هنا مبيناً بعض ما ينشأ عنه من

العواقب السيئة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِم وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً﴾.

ومنها انتقام الله جلَّ وعلا من المُعْرِض عن التذكرة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ الآية.

ومنها كون المُعْرِض كالحمار كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ* كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ الآية.

ومنها الإِنذار بصاعقةٍ مثل صاعقة عادٍ وثمود كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ..﴾ الآية

ومنها المعيشة الضنك والعمى كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُه يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

ومنها سلكه العذاب الصعد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَّاباً صَعداً﴾.

ومنها تقييض القرناء من الشياطين كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِين﴾.

إلى غير ذلك من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإِعراض عن التذكير بآيات الله جلَّ وعلا، وقد أمر الله في موضعٍ آخر بالإِعراض عن المتولي عن ذكره القاصر نظره على الحياة الدنيا وبيَّن أنَّ ذلك هو مبلغه من العلم فلا علمَ عنده بما ينفعه

في معاده وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ الْعِلْمِ﴾.

وقد نهى جلَّ وعلا عن طاعة مثل ذلك المتولي عن الذكر الغافل عنه في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾. أهـ[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذا القُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[2].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير الآية: وذلك أنَّ المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعونه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. وكانوا إذا تليَ عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه فهذا من هجرانه وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعرٍ أو قولٍ أو غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذة من غيره من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء أن يخلصنا مما يسخطه ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنَّه كريمٌ وهَّاب»[3].

---

(١) أضواء البيان ٤/١٥٤ ـ ١٥٦.

(٢) الفرقان ٣٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/١١٧.

وكذلك بيَّن ابن القيم أنَّه يدخل تحت الهجر الذي تعنيه الآية أنواعٌ من الهجر متفاوتةٌ، فقال رحمه الله تعالى: «هجر القرآن أنواع: أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به. والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاده أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم. والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه. والخامس: هجر الإستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به. وكل هذا داخلٌ في قوله تعالى: ﴿**وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا**﴾ وإن بعض الهجر أهون من بعض[1].

---

(١) الفوائد: ٧٥.




الفصــل الثالــث

التعريف بالنصيحة لكتاب الله تعالى من خلال النصوص وأقوال السلف وأفعالهم

وفيه عِدَّة مباحث:




المبحث الأول
في بيان معنى النصيحة لكتاب الله

أ ـ بيان معنى «النصيحة»:

قال المازري: النصيحة مشتقة من نصحت العسل إذا صفيته. ويقال: نصح الشيء إذا خلص، ونصح له القول إذا أخلصه له. أو مشتقة من النُّصْحِ، وهو الخياطة بالْمِنصَحَة وهي الإبرة. والمعنى: أنَّه يَلُمُّ شَعْثَ أخيه بالنُّصْحِ كما تلُمُّ الْمِنصَحة، ومنه: التوبةُ النَّصُوحُ، كأنَّ الذَّنب يُمَزِّق الدين والتوبة تُخَيِّطُه[1].

وقال الخطابي: النصيحة كلمةٌ جامعةٌ معناها حيازة الحظ للمنصوح له، ويقال: هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة، كما قالوا في الفلاح: ليس في كلام العرب أجمع لخير الدنيا والآخرة منه[2].

---

(١) المُعْلِم بفوائد مسلم ١/١٩٧، وانظر: فتح الباري ١/١٣٨.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٣٧، فتح الباري ١/١٣٨.

ب ـ بيان معنى «النصيحة لكتاب الله»:

قال الإمام محمد بن نصر المروزي ـ رحمه الله تعالى ـ: النصيحة لكتاب الله: شدة حبه وتعظيم قدره، إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، ثُمَّ شدة العناية في تدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه ويقوم به بعد أن يفهمه، وكذلك الناصح من العباد يتفهم وصية من ينصحه وإن ورد عليه كتاب منه عُنِيَ بفهمه ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه، فكذلك الناصح لكتاب الله يُعْنى بفهمه ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضى، ثُمَّ ينشر ما فهمه في العباد ويديم دراسته بالمحبة له والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه[١].

وقال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: النصيحة لكتاب الله تعالى: الإيمان بأنَّه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيءُ من كلام الخلق ولا يقدر على مثله أحدُ من الخلق ثُمَّ تعظيمه وتلاوته حقَّ تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة، والذَبُّ عنه من تأويل المحرفين وتَعرُضِ الطاعنين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والإعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه وإلى ما ذكره من النصيحة[٢].

(١) تعظيم قدر الصلاة ٢/٦٣٩.

(٢) شرح صحيح مسلم ٢/٣٨.

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: النصيحة لكتاب الله تعلُّمه وتعليمه، وإقامة حروفه في التلاوة وتحريرها في الكتابة، وتفهم معـانيه، وحفظ حدوده، والعمل بما فيه، وذَبُّ تحريف المبطلين عنه[1].

قلت : هذا مجمل معنى النصيحة، وهو مأخوذٌ من نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف وأفعالهم، وسوف يأتي تفصيل أهم تلك المعاني فيما يلي من مباحث إن شاء الله تعالى.

(١) فتح الباري ١/١٣٨.

المبحث الثاني
قراءة القرآن مع الاكثار منها والمداومة على ذلك

إنَّ قراءة القرآن عبادة لله عزَّ وجلَّ، أمر بها في كتابه ورغَّب فيها، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَاأُوحِي إلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبكَ لا مُبَدلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُور* لِيُوَفِيهِم أُجُورَهُم وَيَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ﴾[2].

وقد حثَّ عليها كذلك المصطفى صلى الله عليه وسلم ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرءوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)[3].

ولقد كان ﷺ القدوة العملية في المداومة على قراءة القرآن:

---

(١) الكهف ٢٧.

(٢) فاطر ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) صحيح مسلم. صلاة المسافرين: ٨٠٤.

ففي سنن أبي داود عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ـ فذكر أنَّ رسول الله ﷺ كان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء يحدثهم، ثُمَّ قال: فلمَّا كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا الليلة. قال: (إنَّه طرأ عليَّ حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أُتِمَّه).

قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف كنتم تُحَزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصَّل وحده[1].

وفي آخر الحديث ما يفيد أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يداومون على قراءة القرآن كذلك.

ولقد كان النبي ﷺ يكثر هو وأصحابه من قراءة القرآن وختمه، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن في أقل من ثلاث»[2].

فمفهوم هذا الحديث أنَّ النبي ﷺ كان يختم القرآن في مدَّةٍ يسيرة وإن كانت لا تقل عن ثلاث، وكان يأمر أصحابه رضوان الله عليهم بذلك، ففي سنن سعيد بن منصور، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: (اقرءوا القرآن في

---

(١) سنن أبي داود، رقم ١٣٩٥.

(٢) عزاه ابن حجر لأبي عبيد. الفتح ٩/٩٧.

وقد أورده ابن حجر في معرض الإستشهاد به، وهذا يدل على قوة الحديث عنده.

سبعٍ ولا تقرءوه في أقل من ثلاث)[١] وقال ابن حجر: اسناده صحيح .

وقد حكى النووي عن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ كثرة قراءتهم للقرآن وختمه، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: «وكان السلف رضي الله عنهم لهم عاداتٌ مختلفةٌ في قدر ما يختمون فيه فروى ابن أبي داود عن بعض السلف ـ رضي الله عنهم ـ أنَّهم كانوا يختمون في كل شهرين ختمة واحدة، وعن بعضهم في كل شهرٍ ختمة، وعن بعضهم في كل عشر ليالٍ ختمة، وعن بعضهم في كل ثمان ليالٍ ختمة، وعن الأكثرين في كل سبع ليالٍ، وعن بعضهم في كل ست ليالٍ، وعن بعضهم في كل خمسٍ، وعن بعضهم في كل أربعٍ، وعن كثيرين في كل ثلاثٍ.. ثُمَّ ذكر أنَّ منهم من كان يختم في أقل من ذلك»[٢].

وقال أيضاً: وأمَّا الذين يختمون في الأسبوع مرَّة فكثيرون، نُقِلَ عن عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنهم ـ وجماعة من التابعين كعبد الرحمن بن زيد، وعلقمة، وإبراهيم رحمهم الله تعالي[٣].

---

(١) فتح الباري ٩/٩٦ ـ ٩٧.

(٢) التبيان ٤٥.

(٣) التبيان ٤٧.

المبحث الثالث
ترتيل القرآن وتحسين الصوت بالقراءة

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1]، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي اقرأه على تمهلٍ[2].

وقد جاء في صفة قراءة النبي ﷺ أنَّها كانت متأنيةٌ مرتلة، ففي صحيح البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سُئِلَ عن قراءة النبي ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ فقال: كانت مَدَّاً، ثُمَّ قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم)[3].

وفي سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها أنَّها نعتت قراءة النبي ﷺ فنعتت قراءته حرفاً حرفاً[4]. وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

---

(١) المزمل ٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٢٧٦.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح، فضائل القرآن ٥٠٤٦.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١٤٦٦ عن يعلى بن مملك أنَّه سأل أم سلمة عن قراءة النبي ﷺ وصلاته.. الحديث.
وسنن الترمذي، فضائل القرآن ٢٩٢٣، والنسائي ٢/١٨١.

قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: «وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم على استحباب الترتيل»[١].

وفي الترتيل فضيلةٌ عظيمةٌ، فإنَّ منزلة قاريء القرآن تعلو في الجنة بقدر ما يرتل قراءته ويترسل فيها في الدنيا:

ففي سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)[٢]. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي المسند عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: (يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه)[٣]، وصححه الألباني[٤].

وينبغي إتقان القراءة وتحسين الصوت بها لأن ذلك يزيد القرآن حسناً وقبولاً وتأثيراً في القلوب:

ففي سنن النسائي، والدارمي، ومستدرك الحاكم عن البراء

---

(١) التبيان ٦٢.

(٢) فضائل القرآن: ٢٩١٤، وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان: ٢/٧١، والحاكم في المستدرك: ١/٥١٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٧٩٧٨.

(٣) المسند: ٣/٤٠، وأخرجه ابن ماجة، كتاب الأدب: ٣٧٨٠.

(٤) صحيح الجامع رقم ٧٩٧٧.

رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسناً)[١].

قال ابن كثير: سنده جيد[٢] وصححه الألباني[٣]

وفي سنن أبي داود عن أبي لبابة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: (ليس مِنّا من لم يتغن بالقرآن)[٤].

وحكى النووي عن جمهور العلماء أنَّ معنى (لم يتغنَّ) أي لم يحسن صوته بالقرآن[٥].

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ القدوة في ذلك:

ففي الصحيح عن البـراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعتُ أحداً أحسن صوتاً منه»[٦].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مغفل ـ رضي الله عنه ـ قال: «رأيت رسول الله ﷺ على ناقته وهي تسير به وهو يقرأ سورة الفتح ـ أو من سورة الفتح ـ قراءة لينة يقرؤها وهو يُرَجِّع»[٧].

---

(١) النسائي: ٢/١٧٩، والدارمي: ٢/٤٧٤، والمستدرك: ١/٥٧١.

(٢) فضائل القرآن: ١١١.

(٣) صحيح الجامع رقم: ٣١٤٠.

(٤) صحيح البخاري مع الفتح/ التوحيد: ٢٥٢٧، سنن أبي داود، كتاب الصلاة: ١٤٧١.

(٥) التبيان ٧٥.

(٦) صحيح البخاري مع الفتح. كتاب الصلاة ٧٦٩، كتاب التوحيد ٧٥٤٦.

(٧) صحيح البخاري مع الفتح. المغازي ٤٢٨١، صحيحي مسلم. ثلاة المسافرين ٧٩٤.

والترجيع يحتمل معنيين. أحدهما: أنَّ ذلك حدث من هزة الناقة. والآخر: أنَّه أشبع المد في موضعه فحدث ذلك. حكاهما ابن حجر، ثُمَّ رجَّح الثاني، فقال: والثاني أشبه بالسياق، فإنَّ في بعض طرقه «لولا أن يجتمع النَّاس لقرأت لكم بذلك اللحن» أي النغم. قال: وقد ثبت الترجيع في غير هذا الموضع، فأخرج الترمذي في الشمائل، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي داود واللفظ له من حديث أم هانيء: «كنت أسمع صوت رسول الله ﷺ وهو يقرأ وأنا نائمة على فراشي يرجِّع القرآن»[١].

وقال ابن أبي جمرة: معنى الترجيع تحسين الصوت[٢]

وكان ﷺ يثني على ذي الصوت الحْسن من أصحابه: ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال له: (لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود)[٣]. يشير بذلك إلى حسن صوته.

وفي سنن ابن ماجه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلةً بعد العشاء، ثُمَّ جئت، فقال: (أين كنتِ؟) قلت: كنت أسمع قراءة رجلٍ من أصحابك لم

(١) صحيح البخاري في الفتح المغازي ٤٢٨١، صحيح مسلم، صلاة المسافرين ٧٩٤.
(٢) الفتح ٢ /٩٢.
(٣) صحيح البخاري مع الفتح. فضائل القرآن ٥٠٤٨، مسلم. صلاة المسافرين ٧٩٣.

أسمع مثل قراءته وصوته من أحدٍ. قالت: فقام، فقمت معه حتى إذا استمع له ثُمَّ التفت إليَّ فقال: (هذا سالِمٌ مولى أبي حذيفة. الحمد للهِ الذي جعل في أُمَّتي مثل هذا)[١].

قال البوصيري: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وقال ابن كثير: سنده جيد[٢]

بل إنَّ الله تبارك وجلَّ في عُلاه ليحب الصوت الحسن بالقرآن ويستمع له: ففي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (ما أذن الله بشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن يجهر به)[٣]

قال ابن الأثير: أي ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبيٍ يتغنَّى بالقرآن[٤]

وفي سنن ابن ماجه عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: (لله أشـدُّ أذَنـاً[٥] إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته)[٦]. قال البوصيري: سنده حسن. وقال ابن كثير: سنده جيد[٧]

(١) سنن ابن ماجه. كتاب إقامة الصلاة ١٣٣٨.
(٢) فضائل القرآن ١١٣.
(٣) صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن ٥٠٢٣، مسلم. كتاب الصلاة ٧٩٢.
(٤) النهاية في غريب الحديث ١/٣٣.
(٥) أذَناً: بالتحريك، أي استماعاً. المصدر السابق.
(٦) سنن ابن ماجه. إقامة الصلاة ١٣٤٠.
(٧) فضائل القرآن ١٠٦.

قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: «أجمع العلماء رضي الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائل هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة عند الخاصة والعامة. .»[١].

قلت: نعم، إن تحسين الصوت بالقرآن وتجويده مطلوبٌ شرعاً للأدلة الصريحة الصحيحة، لكن بشرط المحافظة على مخارج الحروف وتحقيقها واستيفاء أحكامها، لأن المعنى لا يفهم إلا بذلك، والفهم والتدبر هو المقصود، ولذلك جاء الثناء على القارىء الماهر:

ففي صحيح مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة)[٢].

قال ابن حجر: [الماهر أي الحاذق، والمراد هنا جودة التلاوة مع حسن الحفظ][٣].

أما إذا أدى به التلحين إلى الإخلال بالمعنى بإخفاء بعض الحروف أو تحريفها أو ما شابه ذلك مما يخل بالمعنى أو حاكى

---

(١) التبيان: ٧٤.

(٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٧٩٨.

(٣) الفتح: ١٣/٥١٨.

تلحين أهل الغناء والمجون فإنه يذم بذلك ولا يُمدح.

قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: «قال العلماء رحمهم الله تعالى: فيستحب تحسين الصوت بالقراءة وترتيبها ما لم يخرج إلى حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه فهو حرام، وأما القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه فهو حرام، وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعي رحمه الله تعالى في موضعٍ: أكرهها. قال أصحابنا: ليست على قولين بل فيه تفصيل: إن أفرط في التمطيط فجاوز الحد فهو الذي كرهه، وإن لم يجاوز فهو الذي لم يكرهه.

وحكي عن الماوردي في كتابه الحاوي قوله: [القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركاتٍ فيه أو إخراج حركاتٍ منه أو قصر ممدودٍ أو مد مقصورٍ أو تمطيطٍ يخفي به بعض اللفظ ويلتبس المعنى فهو حرامٌ يُفَسَّق به القاريء ويأثم به المُستمع لأنَّه عَدَلَ به عن نهجه القويم إلى الإعوجاج، والله تعالى يقول: ﴿قُرْآناً عَرَبِيَّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾.

قال: وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحاً، لأنَّه زاد على ألحانه في تحسينه.

وقال النووي تعقيباً على ذلك: هذا كلام أقضى القضاة وهذا القسم الأول من القراءة بالألحان المحرمة مصيبةٌ ابتُلِيَ بها بعضُ الجهلة الطغام الغشمة الذين يقرأون على الجنائز وبعض المحافل. وهذه بدعةٌ محرَّمة ظاهرة، يأثم كل مستمعٍ لها كما

قاله أقضى القضاة الماوردي، فيأثم كل قادرٍ على إزالتها أو على النهي عنها إذا لم يفعل ذلك(١).

وقال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: [والغرض المطلوب شرعاً إنَّما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والإنقياد للطاعة، فأمَّا الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويُعَظَّم أن يسلك في أدائه هذا المذهب وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك(٢).

ولا ريب أنَّ الغرض من تحسين الصوت بالقرآن وتجويده هو ترغيب السامع في القرآن وحمله على التدبر والخشوع والتأثر به، فيا سعادة من أسر الألباب بكتاب الله تعالى وعطف القُلُوب عليه، لكن ليعلم القارىء أنَّه بقدْرِ ما يتأثر هو بقراءته ويخشع فيها يكون تأثيره في الآخرين.

ففي المختارة للضياء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (إنَّ أحسن النَّاس قراءةً الذي إذا قرأ رأيت أنَّه يخشى الله). صحَّحه الألباني(٣).

وبذلك ينضم القارىء إلى ركب الدعاة إلى الله، ويكون ممن

---

(١) التبيان ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) فضائل القرآن ١١٤ ـ ١١٥.

(٣) انظر السلسلة الصيحة ٤/١١١ ـ ١١٢.

امتدحهم الله بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وأمَّا إن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله وصار داعياً إلى صوته، متطلِّعاً إلى إعجاب النَّاس، فيا خسارة صفقته، ويا سوء منقلبه.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: (إنَّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يُقال جريء. فقد قيل. ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما فعلت فيها؟ قال: تعلَّمْتُ العِلمَ وعلَّمْتُهُ، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلَّمت لِيُقال عالم، وقرأتَ القرآن لِيقال قاريء. فقد قيل. ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه في النَّار. .) الحديث[2].

قال الآجري رحمه الله تعالى: «ينبغي لمن رزقه الله عزَّ وجلَّ حُسْنُ صوتٍ بالقرآن أن يعلم أنَّ الله قد خصَّه بخيرٍ عظيم فليعرف قدر ما خصَّه الله به، وليقرأ للهِ لا للمخلوقين، وليحذر

---

(١) فُصِّلَت ٣٣.

(٢) صحيح مسلم. الإمارة ١٩٠٥.

من الميل إلى أن يستمع منه ليحظى به عند السامعين رغبةً في الدُّنيا والميل إلى حسن الثناء والجاه عند أبناء الدنيا، والصَّلات عند الملوك دون الصِّلات بعوام الناس، فمن مالت نفسه إلى ما نهيتـه عنه خفت أن يكون حُسْنُ صوته فِتنةً عليه، وإنَّما ينفعه حُسْنُ صوتـه إذا خشي الله عزَّ وجلَّ في السِّر والعلانية، وكان مراده أن يستمع منه القرآن لينبه أهل الغفلة عن غفلتهم فيرغبوا فيما رَغَّبَهُم الله عزَّ وجلَّ وينتهوا عمَّا نهاهم، فمن كان هذه صفته انتفع بِحُسْنِ صوته وانتفع به الناس»[1].

---

(١) أخلاق حملة القرآن ٧٦.

المبحث الرابع
تدبر القرآن عند تلاوته أو سماعه

لقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنَّه أنزل هذا القرآن لِيُقْرَأ بتدَبُّرٍ وتأمُّل، فقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(١). وأنكر سبحانه على الذين لا يتدبرونه فقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٢)، وقال تعالي: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِن عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَبِيراً﴾(٣).

قال الشيخ ابن سعدي في تفسير هذه الآية: يأمر تعالى بتدبر كتابه وهو التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإنَّ التدبُّرَ في كتاب الله مفتاحاً للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كل خير، وتُستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنَّه يُعَرِّف بالرب المعبود وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها وما لهم عند القدوم عليه،

---

(١) ص ٢٩.
(٢) محمد ٢٤.
(٣) النساء ٨٢.

ويُعَرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة والطريق الموصلة إلى العذاب وصفة أهلها وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلَّما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحثَّ عليه وأخبر أنَّه هو المقصود بإنزال القرآن كما قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾(١).

وساق العلامة محمد الأمين الشنقيطي الآيات السابقة الداعية إلى التدبر للقرآن، ثم قال: وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به أمرٌ لابد منه للمسلمين(٢).

ولقد كان ذلك شأن رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وتلاميذهم من التابعين مع كتاب الله تعالى. ففي مسند الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها (أنه ذُكر لها أن ناساً يقرأون القرآن في الليلة مرة أو مرتين. فقالت: أولئك قرأوا ولم يقرأوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ ولا يمر بآية فيها استبشارٌ إلا دعا الله ورغب إليه)(٣).

وفي صحيح مسلم عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: [صليت

---

(١) تيسير الكريم المنان ٢/٥٣.

(٢) أضواء البيان: ٧/٤٢٩، تيسير المنان: ٢/٥٣.

(٣) المسند: ٦/١١٩.

مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة]. فقلت: يركع عند المائة. ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة. فمضى، فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: (سبحان ربي العظيم)... الحديث»[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي وائل قال: «جاء رجل إلى عبد الله ابن مسعود.. وفيه قال: إني لأقرأ المفصَّل في ركعة. فقال عبد الله: هذاً كهذا الشعر؟ إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»[2].

ولأبي عبيد عن أبي حمزة قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، وإني لأقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة أرتلها فأتدبرها خيرٌ من أن أقرأ كما تقول[3].

ولقد كان يطول بأحدهم المقام مع الآية لتدبرها، بل ربما استوقفته ليلة بأكملها، ففي سنن النسائي، وابن ماجه، ومستدرك

---

(١) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، رقم ٧٧٢.

(٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، رقم ٨٢٢.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير ١٥١، وفتح الباري ٨٩/٩ وقال ابن حجر: وعند أبي داود من طريق أخرى عن أبي حمزة: قلت لابن عباس: «إني رجلٌ سريع القراءة، وإني لأقرأ القرآن في ليلة. فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورةً أحبُّ إليَّ، إن كنت الآن فاعلاً فاقرأ قراءةً تُسْمِعُها أذنيك وتوعِها قلبك».

الحاكم: عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، والآية: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُم فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيم﴾(١) صحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وعن تميم الداري أنَّه كرَّر هذه الآية حتى أصبح ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾(٢).

وعن عباد بن حمزة قال: «دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ ﴿فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانا عَذَابَ السَّمُوم﴾ فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو فطال عليَّ ذلك فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثُمَّ رجعت وهي تعيدها وتدعو»(٢).

وردَّد ابن مسعود قوله تعالى: ﴿رَب زِدْنِي عِلْمَا﴾(٢)، وردَّد سعيد بن جبير قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِم﴾، وقوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِكَ الْكَرِيم﴾.

ومن النصوص السابقة وعمل رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، ندرك ضرورة تدبر القرآن وفهم مراد الله تعالى منه

---

(١) سنن النسائي ٢/١٧٧، ابن ماجه، حديث ٨٣٥٠، المستدرك ١/٢٤٦.
(٢) التبيان ٦١.

ولذلك كان الإكثار من القراءة مع احتمال الإخلال بذلك غير محمودٍ، بل تشير النصوص إلى كراهته. ففي سنن أبي داود، والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (لايفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث)[١]. صحَّحه النووي[٢]، والحافظ ابن حجر أشار إلى صحته[٣]، وصحَّحه الألباني[٤].

وقد جعل النووي ـ رحمه الله تعالى ـ الضابط للإسراع في قراءة القرآن والاستكثار من ختمه إمكان تدبره وتفهمه، فقد حكى بعض أحوال السلف في ختمهم للقرآن وسرعة بعضهم في ذلك، ثُمَّ قال رحمه الله: «والإختيار أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدرٍ لا يحصل بسببه إخلالٌ بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكن من غير خروجٍ إلى حد الملل والهذرمة»[٥].

---

(١) سنن أبي داود. حديث ١٣٩٤.

(٢) التبيان ٤٨.

(٣) فتح الباري ٩/٩٦.

(٤) صحيح الجامع. حديث ٧٦٢٠ صفة صلاة النبي ﷺ.

(٥) التبيان ٤٨.

المبحث الخامس
البكاء عند قراءة القرآن أو سماعه

إنَّ البُكاء عند قراءة القرآن أو سماعه من صفات المؤمنين الصادقين، فالمؤمن حين يتدبر القرآن يجد فيه صفات الكمال والعظمة لربه عزَّ وجلَّ، فيمتلىء قلبه عند ذلك مهابةً وإجلالاً لربه، كما يقف على ما أناطه الله به من الأمانة التي أشْفَقَت منها السموات والأرض، وما وعد به من وَفَّى بها من النعيم المقيم وما توعَّد به مَن ضَيَّعَها من العذاب الأليم، ثُمَّ يستشعر تقصيره وتفريطه في ذلك ، فتعظم عند ذلك حسرته، وتنسكب عبرته.

قال النووي رحمه الله تعالى «البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين»[(١)].

ولقد أثنى الله على أنبيائه وصالحي عباده بذلك فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيينَ مِن ذُرِيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِيَةِ إِبْرَاهِيمَ وإسرائيل وَمِمَّن هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم ءَآياتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا لَهَا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾[(٢)].

(١) التبيان ٦٢.

(٢) مريم ٥٨.

وقال تعالى : ﴿قُلْ ءَآمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبنَا لَمَفْعُولا* وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُون ويزيدهم خُشُوعاً﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرفُوا مِنَ الحَق﴾(٢).

وما ذكرهم الله في كتابه ونوَّه عنهم إلاَّ للتأسي بهم. ولقد كان البكاء عند تلاوة القرآن وسماعه شعار رسول الله ﷺ وأصحابه وخيرة السلف رضوان الله عليهم.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ : (إقرأ عليَّ القرآن) فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزِل؟ قال: (نعم . أحب أن أسمعه من غيري) قال: فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُل أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلآءِ شَهِيداً﴾ فقال: (حسبك) فإذا عيناه تذرفان(٣).

وقال ابن بطال: إنما بكى ﷺ عند تلاوة هذه الآية لأنه مَثَّل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية إلى شهادته على

---

(١) الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) المائدة ٨٣.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح. فضائل القرآن ٥٠٥٥.

أُمَّته بالتصديق وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء[١].

وقال ابن حجر: والذي يظهر أنَّه بكى لأنَّه علم أنَّه لابُدَّ أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً فقد يفضي إلى تعذيبهم[١].

وروى ابن مردويه بسنده عن عطاء قال: انطلقت أنا، وابن عمر، وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب. فقالت: ياعُبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر: زُر غُبًّا تَزْدَدْ حُبًّا.

فقال ابن عمر: ذرينا، أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيتِهِ من رسول الله ﷺ. فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً. أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي. ثم قال: (ذريني أتعبد ربي) قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تتعبد لربك. فقام وتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه لصلاة الصبح. قالت: فقال: يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر. فقال: (ويحك يابلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليَّ في هذه الليلة ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات

(١) فتح الباري ٩/٩٩.

لأولى الألباب﴾ ثم قال: (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)[١].

وأخرج عبد الرزاق بسنده عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى، فبكت فقال: ما يبكيك ؟ فقالت: رأيتك تبكي فبكيت. فقال: إني ذكرت قول الله عز وجل (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا) فلا أدري أأنجو منها أم لا؟[٢].

وعن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية: ﴿ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ بكى حتى يغلبه البكاء[٣].

وعن عمر - رضي الله عنه - «أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف، فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته». وفي رواية: «أنه بكى حتى سمعوا بكاءه من وراء الصفوف»[٤].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لَمَّا اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعه قيل له: الصلاة. فقال: (مروا

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/١٦٤ - ١٦٥، وعزاه لابن مردويه، وعبد بن حميد، وابن حبان وابن أبي الدنيا.
قلت: وهو في صحيح ابن حبان. كما في الإحسان: ٢/٩ بنحوه.

(٢) عزاه له ابن كثير: ٥/٢٤٧، وأخرجه ابن جرير: ١٦/١١٠.

(٣) عزاه ابن حجر للدارمي في تاريخ أبي العباس وقال: «سنده جيد» الإصابة: ٦/١٧٢.

(٤) ذكره النووي في التبيان : ٦٢.

أبا بكر فليُصَلِّ بالنَّاس) قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيقٌ، إذا قرأ غلبه البكاء. قال: (مروه فَلْيُصَلِّ). فعاودته، قال: (مُروه فَلْيُصَلِّ، إنَّكُنَّ صواحب يوسف)[1].

وعن أبي صالحٍ قال: قدم ناسٌ من أهل اليمن على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، فجعلوا يقرأون القرآن ويبكون. فقال أبو بكر رضي الله عنه: هكذا كُنَّا[2].

وعن الزهري أنَّ عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثُمَّ قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إن مَتَّعْنَاهُم سِنِين ثَمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ* ما أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾. ثُمَّ يبكي وينشد:

نهارك يا معذور سهوٌ وغفلة ... وليلك نومٌ والردى لك لازمُ
تُسَرُّ بِما يفني وتفرحُ بالمُنى ... كما سُرَّ باللذات في الليل حالمُ
وتسعى إلى ما سوف تكره غِبه ... كذلك في الدُّنيا تكون البهائمُ[3]

(١) صحيح البخاري مع الفتح. كتاب الأذان ٦٨٢.
(٢) التبيان ٤٨.
(٣) تفسير القرطبي ١٣/١٤١.

المبحث السادس
العمل بكتاب الله تعالى

إن أعظم جوانب النصيحة لكتاب الله وأبرز الأدلة على الإيمان به هو العمل به قال تعالى: ﴿**الذين أتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به**﴾[١].

فقد فسر ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ والحسن وقتادة رحمهما الله التلاوة هنا بالعمل والإتباع[٢] وحال رسول الله ﷺ وصحابته أوضح شاهد لذلك فقد كانوا لشدة التزامهم بتوجيهات القرآن كأنهم قرآناً يمشي على الأرض كما وصفهم بذلك من رآهم.

ولذا سوف اقتصر على إيراد نماذج من أقوالهم وأفعالهم فهي أبلغ في تحقيق الغرض: ففي صحيح مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنهاـ انها سئلت عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: (كان خلقه القرآن)[٣].

وفي الأوسط للطبراني ومستدرك الحاكم بسند حسن عن ابن

---

(١) البقرة (١٢١).

(٢) تفسير القرطبي: ٢/٩٥.

(٣) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٧٤٦ في حديث طويل.

عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: (لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على رسول الله ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن نقف عنده منها كما تُعلَّمون أنتم القرآن ثم لقد رأيت رجالاً يؤتي أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل»[١].

وروى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: [كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن][٢].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثني الذين كانوا يقرؤننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخالفوها حتى يعملوا بما فيها فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[٣].

وقال الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار»[٤].

---

(١) مجمع البحرين بزوائد المعجمين: ١/٤٨٢، بتحقيق كاتب هذه الأسطر، والمستدرك: ١/٣٥، وقال صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة ولم يخرجاه وقال الذهبي: على شرطهما ولا علة له.

(٢) مقدمة تفسير ابن كثير: ١/١٣.

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير: ١/١٣.

(٤) التبيان: ٤٣.

وهناك مواقف عملية كثيرة للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع النصيحة لكتاب ربهم تبرز لنا مبادرتهم للعمل والتنفيذ لتوجيهات القرآن. وتؤكد ما سبق في وصف حالهم ونجتزىء بعضها فيما يلي:

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «لمَّا نزلت على رسول الله ﷺ ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا:

يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في اثرها: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله

تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ . . الحديث[١].

فهذه القصة تؤكد ما سبق تقريره فإنه لما استقر في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم الإيمان بالعمل بكل آية في كتاب الله ـ من المحكم ـ استشعروا بثقل التبعة التي تضمنتها هذه الآية وهي كونهم يحاسبون على ما أخفوا في أنفسهم، لأن الله يعلم ما توسوس به نفوس العباد ولذلك أتوا إلى الرسول ﷺ وَجلين كما فهم من قوله: «فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ» وقوله: «ثم بركوا على الركب».

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما أنزلت ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ وإن أحب أموالي إليّ بَيرْحُاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ: بخ ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن

---

(١) صحيح مسلم. الإيمان: ١٩٩.

تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[١].

وفي الصحيحين عن ابن عمر أن عمر أصاب بخيبر أرضاً فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه فكيف تأمرني به؟ قال: (إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها)[٢].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في هذا الحديث فضيلة ظاهرة لعمر لرغبته في امتثال قوله تعالى: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾[٣].

وروى البزار بسنده عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال: قال عبد الله حضرتني هذه الآية ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيئاً أحب إليّ من جارية لي رومية، فقلت هي حرة لوجه الله فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها يعني تزوجتها[٤].

وفي صحيح البخاري عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ رفعا أصواتهما عند

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، الزكاة: ١٤٦١، ومسلم، الزكاة: ٩٩٨.
(٢) صحيح البخاري مع الفتح، الوصايا: ٢٧٧٢، ومسلم، الوصيَّة: ١٦٣٢.
(٣) فتح الباري: ٥/٤٠٣.
(٤) تفسير ابن كثير: ٢/٦١.

النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع وأشار الآخر برجل آخر ـ قال نافع لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك. فأنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم**﴾ الآية.

قال ابن الزبير فما كان عمر يُسْمِع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ولم يذكر ذلك عن أبيه»[١].

قال ابن حجر: وقد أخرج ابن المنذر من طريق محمد بن عمرو بن علقمة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: مثل ذلك للنبي ﷺ وهذا مرسل وقد أخرجه الحاكم موصولا من حديث أبي هريرة نحوه، وأخرجه ابن مردويه من طريق ابن شهاب عن أبي بكر قال: لما نزلت (لا ترفعوا أصواتكم.. الآية) قال أبو بكر: قلت يا رسول الله آليت ألّا أكلمك إلّا كأخي السرار)[٢].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ قال: شر ـ كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير: ٤٨٤٥.
(٢) فتح الباري: ٨/٥٩١.

قال: كذا وكذا. فرجع إليه المرة الثانية ببشارة عظيمة فقال: إذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة)[١].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قدم علينا عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بنِ قيس وكان من النفر الذين يُدْنيهم عمر - وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شُبَّانا فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس فاستأذن الحر بن قيس لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى همّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه ﷺ ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله»[٢].

والشاهد قوله: «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله» وهذه الواقعة تختلف عن الوقائع السابقة لأن فيها أطر للنفس في سورة غضبها على الحق وذلك تحقيق

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير : ٤٨٤٦.
(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، التفسير: ٤٦٤٢، الإعتصام : ٧٢٨٦.

لصفات عباد الرحمن الذين وصفهم الله بقوله: ﴿**والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً**﴾.[(١)]

وفي الصحيح عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على المسلمين فقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: (ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾[(٢)].

وفي مسند الإمام أحمد والمستدرك عن أبي بكر بن أبي زهير قال: أخبرت أن أبا بكر قال: يارسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يُجز به**﴾ فكل سوء عملنا جزينا به؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء، قال. بلى، قال: فهو مما تجزون به)[(٣)]. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وروى ابن جرير عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾ فرفع أبو بكر يده وقال: يا

---

(١) الفرقان آية (٧٣).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير: ٤٧٧٦، ٤٦٤٩.

(٣) المسند: ١/٦٨ ـ ٦٩، المستدرك: ٣/٧٤.

رسول الله إني أجزي بما عملت من مثقال ذرة من شر؟. فقال (يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة)[١]. وفي المسند عن صعصعة عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾ فقال حسبي ألّا أسمع غيرها[٢].

ولعل فيما سبق من الأمثلة كفاية لتصور حقيقة النصيحة لكتاب الله تعالى، لكن ربما تساءل بعض المؤمنات الصالحات أليس للصاحبيات مواقف تبرز حالهنَّ في تلقّيهِنَّ كتاب ربهن ونصحهن له؟.

فأقول: إن تلقي الصحابة والصحابيات ـ رضوان الله عليهم ـ أجمعين لكتاب ربهم علماً وعملاً حقيقة واضحة لا تحتاج إلى براهين فالسيرة النبوية كلها ناطقة بذلك.

وما ذكرناه من الأمثلة السابقة عن الصحابة ليس لإثبات هذه الحقيقة، كلّا وإنما ذكرنا ذلك لتوضيح معنى النصيحة من خلال فهم الصحابة رضوان الله عليهم ثم لحفز النفوس لتحقيقها لأن هذه الحقيقة أصبحت في مجتمعاتنا من قبيل غربة الدين فمن هذه الحيثية لا بأس بذكر نماذج من حال الصحابيات أيضاً فإن

---

(١) تفسير ابن جرير: ١٥/٢٦٨.

(٢) المسند: ٥/٥٩.

لهن مواقف لا تخفى فهـذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تأخذ آية الزلزلة ـ التي سبق ذكر مواقف بعض الصحابة معها مأخذ التنفيذ ففي موطأ الإمام مالك رحمه الله تعالى أن مسكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين وفي يدها عنب فقالت لإنسان: خذ حبة فاعطه إياها فجعل ينظر إليها ويعجب. فقالت عائشة: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة؟!(1).

وأم المؤمنين ما تصدقت بحبة العنب عن بخل حاشاها عن ذلكٌ فهي الكريمة بنت الكريم فقد روى هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير ابن اختها أن معاوية رضي الله عنه بعث إليها بمائة الف قال فوالله ما غابت عليها الشمس حتى فرقتها، فقالت مولاة لها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً؟ فقالت: ألا أذكرتني؟(2).

وإنما تصدقت بحبة العنب عملا بالآية وإرشاداً لغيرها ألّا يحقروا شيئاً من الخير ثم إن حرصها على مثقال الذره من الخير دليل على حذرها من مثقال الذرة من الشر أيضا فهل أدركت المسلمات من هذه الآية ما أدركت أُمهنّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ فاجتنبن ما هو في أعينيهن يعدل الذرة ولربما كان في أعين الصحابيات يعدل الجبل؟.

---

(1) الموطأ، كتاب الصدقة: ٦.

(2) تذكرة الحافظ: ١/٢٨.

ولا يقال تلك أم المؤمنين فأين نحن منها؟ فإن ذلك كان شأن الصحابيات ـ رضي الله عنهن ـ كلهن بشهادة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها»[1].

كما شهدت بذلك لنساء الأنصار أيضا فقد روى ابن أبي حاتم عنها أنها قالت: «والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار وأشد تصديقاً بكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحّل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله في كتابه فاصبحن وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات كأنه على رؤوسهن الغربان[2].

(١) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير: ٤٧٥٨.
(٢) تفسير ابن كثير: ٦/٤٨ ـ ٤٩.




الفصل الرابع

واجبنا في تحقيق النصيحة لكتاب الله تعالى

وفيه ثلاثة مباحث:




المبحث الأول
حالنا مع النصيحة لكتاب الله تعالى

لقد وقفنا من خلال الأحاديث والآثار السابقة على صورة وضيئة تجسد فيها معنى النصيحة لكتاب الله تعالى في واقع ملموس إنه حال رسول الله ﷺ وأصحابه مع النصيحة لكتاب الله تعالى قراءة وتدبراً وعملاً وهو الحال الذي لا يقبل الله غيره فقد جاء في وصف النبي ﷺ للفرقة الناجية بأنها من كان على مثل ما كان عليه هو وأصحابه»[1].

فلا يسعنا إلا أن ننظر حالنا مع النصيحة لكتاب الله تعالى ونقومه من خلال مقارنته بتلك الصورة الوضيئة لنرى مدى تحقيقنا لها وإننا والحمد لله لنرى اليوم عناية طيبة في خدمة كتاب الله تعالى فلقد أصبح القرآن في متناول كل أحد شاء قراءته أو سماعه فنسخه من المصاحف والأشرطة المسموعة أكثر من أن يحيط بها العدّ والحصر.

وفي بلاد الحرمين ـ حماها الله ـ مدارس خاصة بتحفيظ كتاب الله وهي منتشرة في أنحاء البلاد وإلى جنبها «جماعات تحفيظ القرآن الخيرية» قد انتشرت حلقها في المدن والقرى والهجر

---

(١) المعجم الصغير للطبراني: ٢/ ٢٩ من حديث أنس بن مالك.

وتلك جهود مشكورة وهي بلا شك من النصيحة لكتاب الله تعالى وخطوة لابد منها لتحقيق الجانب العملي من النصيحة وهو الجانب الهام الذي من أجله أنزل القرآن قال تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾[١].

قال الحسن البصري رحمه الله: تدبر أياته إتباعها[٢]. وقال تعالى: ﴿**الذين أتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به**﴾[٣].

قال ابن مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «يتبعونه حق اتباعه[٤]». فما حال المسلمين اليوم مع هذا الجانب من النصيحة لكتاب الله يا ترى؟ إن المتأمل لحال المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ليرى التقصير في هذا الجانب واضحاً والبون ما بين حالهم وحال السلف رضوان الله عليهم شاسعاً سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، والأمة، ولندع الحديث عن ذلك للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى فقد ذكر نبذة في فضل القرآن وهدايته ثم قال: ومع هذا كله فإن أكثر المنتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا معرضون عن التدبر في آياته غير مكترثين بقول من خلقهم ﴿**أفلا يتدبرون**

---

(١) «ص»: ٢٩.

(٢) تفسير القرطبي: ١٥/١٩٢.

(٣) البقرة آية (١٢١).

(٤) تفسير ابن كثير: ١/٢٣٦ وفيه عنهما أيضاً: يحملون حلاله ويحرمون حرامه.

القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ لا يتأدبون بآدابه ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق يطلبون الأحكام في التشريعات الضالة المخالفة له غير مكترثين بقول ربهم: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** وقوله: **﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾**. بل المتأدب بآداب القرآن المتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق محتقر مغموز فيه عندهم إلا من عصمه الله فهم يحتقرونه واحتقاره لهم أشد. قال الشافعي رحمه الله:

فهذا زاهد في قرب هذا … وهذا فيه أزهد منه فيه

وإياك يا أخي ثم إياك أن يزهدك في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه ولا كثرة المحتقرين لمن يعمل به ويدعو إليه واعلم أن العاقل الكيس لا يكترث بانتقاد المجانين. أهـ[1].

قلت: والمتأمل في واقع المسلمين اليوم يرى أن ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى أوضح من فلق الصبح لا يحتاج إلى برهان بل الأمر كما قيل:

وليس يصح في الأذهان شيء … إذا احتاج النهار إلى دليل

والسؤال الذي يطرح نفسه كما يقال:

ما هو السبب في تخلُّف حال المسلمين اليوم عن حال السلف في عدم تخلقهم بأخلاق القرآن وتأدبهم بآدابه ورجوعهم إليه في جميع أمورهم؟.

---

(١) أضواء البيان: ١/٥٠٤.

المبحث الثاني
سبب قصور حالنا اليوم عن حال السلف إزاء النصيحة لكتاب الله تعالى

لقد جاء الجواب عن التساؤل السابق في أثرٍ لابن عمر رضي الله عنهما وكفى به حجة في ذلك فكما قيل على «الخبير سقطت» فقد بيّن الدافع للصحابة رضوان الله عليهم إلى العمل بكتاب الله تعالى وتحقيق النصيحة له كما بين سبب التقصير في العمل بكتاب الله فقال رضي الله عنه: (لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتىٰ الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على رسول الله ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن نقف عنده منها كما تعلمون أنتم القرآن ولقد رأيت رجالاً يؤتي أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته مايَدْري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل[1].

فالإيمان الذي اشار إليه ابن عمر بقوله: «وإن أحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن..» هو الإيمان بأن القرآن إنما أنزل لتدبر آياته والعمل به.

(١) انظره ص: ٤٨ ـ ٤٩.

وذلك الإيمان هو الذي دفع الصحابة رضوان الله عليهم لتحقيق النصيحة لكتاب الله على ذلك الوجه فكانوا فور نزول السورة أو الآية يبادرون لتعلمها والعمل بها كما قال ابن عمر في حديثه السابق: «وتنزل السورة على رسول الله ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن نقف عنده منها».

قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثني الذين كانوا يقرؤوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخالفوها حتى يعملوا بما فيها»[1].

ولقد استقرت هذه الحقيقة في نفوس الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فرأوا ضرورة تلازم تعلم كتاب الله والعمل به وأنه لا يمكن الفصل بينهما وكانوا يلقنون تلاميذهم من التابعين ذلك فيقول ابن عمر في حديثه السابق لتلاميذه: «كما تعلمون أنتم القرآن». ويقول أبو عبد الرحمن السلمي أحد تلاميذ الصحابة» فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً».

ولقد أصبح هذا المنهج مألوفاً لدى التابعين حتى كانوا ينكرون على من أخلّ به أشدَّ النكير فيقول الحسن البصري رحمه الله تعالى وهو من سادات التابعين وجِلهم: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله وما تدبره بحفظ

(١) أنظره ص: ٤٩.

حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً وقد والله أسقطه كله ما يرى القرآن له في خلق ولا عمل حتى إن أحدهم ليقول: إني لاقرأ السورة في نَفسٍ والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة متى كان القرآن مثل هذا؟ لاكثر الله في الناس من أمثال هؤلاء.

وأفاد الأثر السابق عن ابن عمر أيضاً أن سبب التقصير في العمل بكتاب الله يرجع إلى عدم تمكن ذلك الإيمان من القلوب فقد جاء فيه قوله: «ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ماآمره ولا زاجره...».

ويَعْني أن أولئك الذين أدركهم قد قَصَّروا في العمل كان أحدهم يتلقى القرآن وليس في قلبه من الإيمان بوجوب العمل به ما يدفعه للعمل.

فقد ظهر لنا من خلال ما سبق أن إيمان السلف بتلازم تعلم كتاب الله والعمل هو الذي جعلهم يحققون النصيحة لكتاب الله تعالى كما أن ضعف الإيمان بذلك في قلوب أولئك الذين أنكر حالهم ابن عمر والحسن هو الذي حملهم على التقصير في تحقيقها إذن فبقدر ما تزيد نسبة ذلك الإيمان في قلب العبد

يكون تحقيقه للنصيحة وقربه من حال السلف وبقدر ما يضعف ذلك الإيمان في قلبه يكون تقصيره في تحقيق النصيحة وبعده عن حال السلف وكل امرىء حسيب نفسه، والله المستعان.

المبحث الثالث
كيف نحقق النصيحة لكتاب الله تعالى؟

إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كما قال الإمام مالك - رحمه الله - تعالى فمنهج الصحابة - رضوان الله عليهم - في ذلك هو وحده الكفيل بتحقيقها إذ أنهم قد تلقوه عن رسول الله ﷺ وعنهم أخذه من بعدهم.

فلابد من دعوة جادة لتجديد ذلك المنهج ولعل فيما سبق من النصوص ما يعطي صورة واضحة له. وأحب أن أشير فيما يلي إلى أمور تساعد عملياً على تحقيق النصيحة لكتاب الله تعالى.

١ - المبادرة بالتوبة النصوح من جميع الذنوب والمعاصي لاسيما أمراض القلوب حتى يصبح القلب مهيئاً لقبول كلام الله تعالى وفي القاعدة العقلية التي يحكيها ابن القيم رحمه الله تعالى: «قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده»[١] فكما أن القلب المطمئن بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ينفر عن ضد ذلك من اللهو والغناء فكذلك القلب المشرب بحب اللهو والغناء لا ينشرح لذكر الله وللقرآن ولا ينتفع بذلك.

وقد جعل ابن جماعة - رحمه الله تعالى - التوبة أول آداب

(١) الفوائد: ٢٧.

طالب العلم فقال ـ رحمه الله تعالى ـ في معرض تعداده لآداب المتعلم:

الأول: أن يطهر قلبه من كل غشٍ ودنسٍ وغلٍ وحسد وسوء عقيدة وخلق ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والإطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه فإن العلم كما قال بعضهم: صلاة السرّ وعبادة القلب وقربة الباطن وكما لا تصلح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث فكذلك لا يصلح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته من خبث الصفات وحدث مساوىء الأخلاق ورديئها.

وإذا طيب القلب للعلم ظهرت بركته ونما كالأرض إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا وفي الحديث (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب).

وقال سهل بن عبد الله التستري: «حرام على قلبٍ أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله عز وجل» أهـ[1].

وقال الشافعي ـ رحمه الله تعالى:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال أعلم بأن العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصِ

(١) تذكرة السامع والمتكلم: ٦٧.

وإذا كان ذلك مشروط لطلب العلم عموماً فتعلم كتاب الله أولى بذلك.

٢ - أن يشعر التالي لكتاب الله أو السامع له أنه هو المخاطب.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : إذا سمعت يا أيها الذين آمنوا فاصغ لها سمعك فإما خيراً تؤمر به أو شراً تنهى عنه.

وقال الحسن بن على - رضي الله عنهما -: ان من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار[1].

وقال الآجري - رحمه الله تعالى -: فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القر آن كالمرآه يرى فيها ماحسن من فعله وما قبح منه فما حذره مولاه حذره وما خوفه خافه وما رغبه فيه رغب فيه ورجاه فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته ورعاه حق رعايته وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحرزاً ومن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله وعاد على والديه وولده كل خير في الدنيا والآخرة[2].

وقال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: إذا أردت الإنتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من

---

(١) التبيان : ٤٣.

(٢) اخلاق حملة القرآن: ٢٩.

يخاطبه من تكلم به سبحانه منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ»[١].

٣ ـ استشعار الحال التي نزل فيها القرآن على رسول الله ﷺ.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول ﷺ وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه»[٢].

وقال سيد ـ رحمه الله تعالى ـ : إن النصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب إنما تدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في جوها التاريخي الحركي وفي واقعيتها الإيجابية وتعاملها مع الواقع الحي وهي وإن كانت أبعد مدى وأبقى أثراً من الواقع التاريخي الذي جاءت تواجهه ـ لا تنكشف عن هذا المدى البعيد إلا في ضوء ذلك الواقع التاريخي ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم وفاعليتها المستمرة ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين وحدهم ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين نزلت هذه النصوص عليهم أول مرة ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان هؤلاء يواجهون»[٣].

---

(١) الفوائد: ٣.

(٢) تيسير الكريم المنان: ١/٤

(٣) في ظلال القرآن: ٣/١٤٥٣.

٤ ـ أن يكون حال قراءة القرآن أو سماعه حاضر القلب متدبراً متفهماً لكلام الله تعالى ، كما قال سبحانه ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾ .

قال ابن قتيبة : أي استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل و لاساه[1].

٥ ـ الإستعانة بالله تبارك وتعالى في تحقيق ذلك فإن عون الله هو الأساس لتحقيق كل خير وفلاح، قال تعالي : ﴿**من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً**﴾[2].

وقال سبحانه : ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده**﴾[3].

وكما قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يقضي عليه اجتهاده

فلابد لمن أراد تحقيق النصيحة لكتاب الله تعالى من الضراعة إلى مولاه تبارك وتعالى ليمده بالعون على تحقيقها وقد أرشد إلى ذلك المصطفى ﷺ في وصيته لمعاذ:

ففي سنن أبي داود عن معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال: (يا معاذ والله إني لأحبك أوصيك يامعاذ لاتدعن في

(١) الفوائد : ٣.
(٢) الكهف آية (١٧).
(٣) فاطر آية (٢).

دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[١].

ولا شك أن النصيحة لكتاب الله تعالى داخلة في هذه الوصية لأن كتاب الله تعالى من الذكر، والنصيحة له من العبادة.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة: ١٥٢٢ وهو في صحيح ابن حبان كما في الإحسان: ٣/٢٣٤، ومستدرك الحاكم.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبعد ، فبعونه وتوفيقه تبارك وتعالى تم إنجاز هذا البحث وتذكيراً بأهم النقاط التي تطرق لها أوجزها فيما يلي :

- اشتمال كتاب الله تعالى على الهداية لخيري الدنيا والآخرة .
- أن تلك الهداية قد تمثلت في واقع محسوس حتى شهد بها الأعداء وسبق تفصيل ذلك في ثنايا البحث .
- النصيحة لكتاب الله تعالى هي قراءته وتدبره والعمل بما جاء به .
- أن السلف رضوان الله عليهم قد حققوا النصيحة لكتاب الله بذلك الشمول، وسبق ذكرما يثبت ذلك من أقوالهم وأفعالهم .
- من خلال مقارنة حالنا اليوم بحال السلف رضوان الله عليهم يتبين لنا التقصير الكبير في تحقيق تلك النصيحة .
- تمَّ الوقوف من خلال تلك المقارنة على سبب ذلك التقصير.
- كما سبق التذكير ببعض الأمور التي تساعد على تحقيق النصيحة .

هذا وأسأل المولى تبارك وتعالى أن يوفقنا وجميع المسلمين لتحقيق النصيحة لكتابه وأن يهدينا بهدايته لخيري الدنيا والآخرة.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المؤلف

مراجع البحث

(١) القرآن الكريم.
(٢) أخلاق حملة القرآن/ للآجري، مكتبة الدار.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، مكتبة الكليات الأزهرية.
(٤) أضواء البيان/ للشنقيطي، ط. الأولى، دار الأصفهاني.
(٥) البداية والنهاية/ لابن كثير، ط. الأولى، دار الكتب العلمية.
(٦) تاريخ بغداد/ للخطيب، دار الكتاب العربي.
(٧) التبيان في آداب حملة القرآن/ للنووي، ط. الثانية، دار النفائس.
(٨) تذكرة الحفاظ/ للذهبي، دار إحياء التراث.
(٩) تذكرة السامع والمتكلم/ لابن جماعة، دار الكتب العلمية.
(١٠) ترتيب القاموس/ للزواوي، ط. الثانية، الحلبي وشركاه.
(١١) تعظيم قدر الصلاة/ للمروزي، ط. الأولى، مكتبة الدار.
(١٢) تلخيص مستدرك الحاكم/ للذهبي، بحاشية المستدرك.

(١٣) تيسير الكريم المنان/ لابن سعدي، ط. الجامعة الإسلامية.
(١٤) جامع البيان / لابن جرير الطبري، دار المعارف، تحقيق أحمد شاكر.
(١٥) جامع البيان/ لابن جرير الطبري، دار الفكر.
(١٦) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ، ط. الثالثة، مركز تحقيق التراث.
(١٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة/ للألباني، ط، الأولى المكتب الإسلامي.
(١٨) سلسلة الأحاديث الضعيفة/ للألباني، ط، الأولى المكتب الإسلامي.
(١٩) سنن الترمذي/ مطبعة الحلبي وأولاده.
(٢٠) سنن الدرامي/ دار إحياء السنة النبوية.
(٢١) سنن أبي داود/ تحقيق الدعاس.
(٢٢) سنن ابن ماجة/ دار إحياء التراث العربي.
(٢٣) سنن النسائي (المجتبي)، دار إحياء التراث.
(٢٤) سير أعلام النبلاء/ مؤسسة الرسالة.
(٢٥) شرح النووي على صحيح مسلم/ دار الفكر.
(٢٦) صحيح البخاري/ مطبوع مع الفتح / المطبعة السلفية.
(٢٧) صحيح مسلم/ دار إحياء التراث.

(٢٨) صحيح الجامع/ للألباني، ط الأولى، المكتب الإسلامي.
(٢٩) ضعيف الجامع/ للألباني، ط الأولى، المكتب الإسلامي.
(٣٠) الغارة على العالم الإسلامي.
(٣١) فتح الباري/ لابن حجر، المطبعة السلفية.
(٣٢) فضائل القرآن/ لابن كثير، دار المعرفة.
(٣٣) الفوائد/ لابن القيم، مطبعة الإمام.
(٣٤) لسان العرب/ لابن منظور. دار صادر.
(٣٥) المؤمل في الرد إلى الأمر الأول/ لأبي شامه/ ضمن مجموع الرسائل المنيرية.
(٣٦) مجمع البحرين بزوائد المعجمين / للهيثمي، ط. الأولى ، مكتبة الصديق.
(٣٧) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان/ لسبط ابن الجوزي، مركز احياء التراث جامعة أم القرى.
(٣٨) مستدرك الحاكم / دار الكتاب العربي.
(٣٩) مسند الإمام أحمد/ المكتب الإسلامي.
(٤٠) المعجم الصغير/ للطبراني، المكتب الإسلامي.
(٤١) المعلم بفوائد مسلم / للمازري، دار الغرب الإسلامي.
(٤٢) موطأ الإمام مالك / كتاب الشعب.
(٤٣) النهاية في غريب الحديث/ لابن الأثير، المكتبة الإسلامية.

فهرس الموضوعات